# الباب الأول

## تمهيد

عندما نحاول أن نعرّف علم النفس نجد أن أمامنا مهمة عسيرة . وليس ذلك بغريب ، فإنه ليس من السهل تعريف أى علم من العلوم ، حتى العلوم الطبيعية مع ما امتازت به من تحدد المنهج ووضوح المعالم .

وتبدو الصعوبة لأول وهلة فى تسمية العلم ، فهو علم "النفس" ، واستعمل كلمة "النفس" فى ذاته أمر يدعو الى التساؤل . ما هو المقصود بها ؟ أهى "الروح" أم "العقل" أم هما معا ؟ أم شىء آخر غيرهما ؟

والواقع أن الإجابة على هذا السؤال لن تكون مجدية تماما إلا بعد دراسة هذا العلم ، ولكننا نستطيع أن نقول باختصار إن علم النفس الحديث هو أحد العلوم التى تدرس "الإنسان" ، فتنظر الى جانب من جوانبه المتعددة ، وتحلل هذا الجانب ، وتصل فيه الى الحقائق وتربط العلل بالمعلولات ، ثم تربط بين هذا الجانب الذى تدرسه من الإنسان و بين جوانبه الأخرى .

ما هو هذا الجانب الذى يدرسه علم النفس ؟ لعله ، ليس هناك ما يوضح لنا اتجاه علم النفس الحديث خيرٌ من مقارنته بعلم آخر واضح المعالم لدرجة كبيرة ، هو علم وظائف الأعضاء ، أو "الفسيولوجيا" فهذا العلم أيضا يدرس الإنسان ، يدرس جانبا من جوانبه ، هو جانب الوظائف التى يقوم بها جسمه ، بكلّيته و بأجزائه . فهو ينظر إلى التنفس ، إلى التغذى و إلى النمو ، إلى الإخراج و إلى التناسل .. و إلى غير ذلك من الوظائف التى يقوم بها الكائن الحى أو تقوم به ، ويحاول أن يبحث عن كيفية حدوثها وعن آثارها وعلاقتها بعضها ببعض . إلى غير ذلك .

obeikandl.com

والإنسان لاتقتصر حياته على أنه يأكل ، ويمو ، ويتنفس ، ويتحرك . . وإنما هو يقوم بوظائف أخرى أو تقوم به هذه الوظائف . فهو يشعر ويُدرك ويفكر ، ويتذكر ، وينفعل ، ويريد ، ويغضب ، ويرضى ، ويُسرّ ، ووظيفة علم النفس أن يدرس هذه "الوظائف" دراسة توصلنا إلى فهم الكيفية التى تحدث بها ، وإلى ما بين بعضها والبعض الآخر ثم ما بينها وبين وظائفه الأخرى — الفسيولوجية — من علاقات وتفاعلات . وعلم النفس الحديث ينظر الى النفس خلال هذه الوظائف ، فيعتبر أن هذه الوظائف "النفسية" هى مظهر النفس ، أو بعبارة أخرى فإن النفس مجرد تسمية لجانب من جوانب الإنسان باعتباره كائنا حيا . فكأنها "الوسط"[1] الذى تحدث فيه هذه الوظائف ، إذ أنه من العسير أن نتصور قيام هذه الوظائف بدون "وسط" تحدث فيه كما يصعب علينا أن نتصور انتقال موجات الضوء والكهرباء بدون وسط تحدث فيه ولذلك نفرض وجود الأثير .

ومعنى ذلك أننا ننظر الى الكائن الحى — والحيوان فى ذلك مثل الانسان — باعتباره وحدة فكما أنه يتغذى ويتنفس ، فهو يشعر ويدرك ويريد ، بل إنه ليقوم بكلا النوعين من الوظائف مندمجة معا .

إذن فمجموعة الوظائف التى يبحث فيها علم وظائف الأعضاء وتلك التى يبحث فيها علم النفس كلها وظائف الكائن الحى ، وإنما تميزت الطائفة الأولى من هذه الوظائف بإمكان تتبعها تتبعا ماديا ، فنحن نستطيع أن نحلّل الطعام الذى نتناوله فى المعمل ، ونستطيع أن نتتبع العمليات التى يمر بها من تمزيق وطحن وما يصب عليه من سوائل هاضمة وما يحدث له فى الفم والمعدة والأمعاء الى آخر ذلك . فالأجهزة التى تقوم بوظائف الهضم والتنفس والإخراج أجهزة معروفة لنا نستطيع أن نصل اليها بالتشريح وبالتجارب والمشاهدة الفعلية .

أما الطائفة الثانية من الوظائف من تفكير وإدراك وشعور ، فليست من نفس النوع ، فهى لاتخضع لمبضع الجراح ، وتستعصى على عدسة الميكروسكوب ، ولا نستطيع أن نتتبعها فى المعمل بالمشاهدة الفعلية .

ولذلك كان لعلم النفس طرائقه الخاصة المستمدة من طبيعة الوظائف التى يبحث فيها .

---

(١) Medium كما هو مفهوم فى علم الطبيعة

ولا شك فى أن البحث فى أى العلمين ، علم وظائف الأعضاء وعلم النفس ، يجر بالضرورة إلى البحث فى الآخر . فاذا تتبعنا أية وظيفة من الوظائف الفسيولوجية ، فإننا سنجد فى النهاية أن أداءها مرتبط بتلك المجموعة من الأنسجة الرخوة المحميّة داخل التجاويف العظمية الصلبة للجمجمة والعمود الفقرى ، وما يتبعها ، وهى التى نسميها إجمالا بالجهاز العصبى .

وإذا بحثنا فى الوظائف النفسية فإن البحث يقودنا فى النهاية إلى نفس المصدر ، غير أن وظيفة المخ باعتباره عاملا فعالا فى الوظائف الفسيولوجية للجسم وظيفة أغلبها معروف ، ولكن وظيفته باعتباره مركزا للعمليات العقلية أو النفسية أغلبها مجهول وأقلها معروف . فى هذه الساحة إذن تلتقى الوظائف النفسية والوظائف الفسيولوجية ومن هذا التلاقى تنشأ العلاقة الوثيقة بين النوعين من الوظائف ، بل الوحدة التى تتجلى فى الكائن الحى .

والعلاقة بين الجسم والنفس مما شغل الباحثين أجيالا طويلة ، وما زال ولن يزال يشغلهم ، وكلٌّ يحاول أن يحل معضلاته بطريقته الخاصة . فهو يشغل الفلاسفة ، يحاولون أن يصلوا إلى الحل بتأملاتهم ، ويشغل علماء النفس وعلماء البيولوجيا والطب ، يحاولون أن يصلوا إليه بالتجارب والمشاهدات .

إذا كنا قد استطعنا أن ندرك الآن ما الذى نقصده بعلم النفس بوجه الإجمال ، فلننتقل إلى النقطة الثانية لنلخّص فيها كيف نظر العلماء إلى النفس فى مختلف العصور ، فنجد أن هناك طريقين متوازيين للبحث بدأ أحدهما فلسفيا والآخر طبيا وانتهى بهما الأمر إلى أن تقاربا ثم اندمجا لدرجة كبيرة .

أما الأول فقد بدأ منذ عهد الفلاسفة الإغريق فقد اهتموا بالعلم ، وبما أن " العقل " هو أداة العلم فقد انصرف همهم إلى دراسة " العقل " ، وكانت دراستهم منصبّة أكثر ما تكون على جانب مما نسميه الآن بالفكر أو المعرفه ، وقد استمر الاهتمام بهذه الناحية خلال العصور الماضية ، ولا يزال إلى الآن الشغل الشاغل لكثير من علماء النفس ، فالإدراك والفكر ، والتذكر والذكاء وما إليها لا تزال من أهم ما يشمله علم النفس .

obeikandl.com

وأما الطريق الآخر فنستطيع أن نرجعه إلى عهد جالينوس الاغريق أيضا ، الذى أراد أن يفسر مايبدو على أفراد الجنس الانسانى من فروق فى "المزاج" [١] فهناك الشخص النشط وهناك المندفع وهناك المتهور وهناك الكسول الخامل ، وهناك القوى ثم الضعيف الخائر ، وقد أرجع جالينوس هذه الفروق إلى تفاعل أمزجة أو "سوائل" أربعة موجودة فى الجسم وتغلب أحدها على الأخرى .

ونشأت عن ذلك الأمزجة الأربعة المشهورة ، الدموى والصفراوى والسوداوى والبلغمى أو " اللفاوى " ، ولكل منها خصائص يمتازبها ، فبينما نجد أن الدموى يتميز سلوكه بالنشاط والتقلب ، نجد أن سلوك البلغمى يتميز بالضعف والخمول ، والصفراوى بالعناد والطموح ، والسوداوى بالانقباض والوجوم والتشاؤم وحب الانفراد ، ومن الغريب أن العلم الحديث يوافق على أن الشخصية تتأثر تأثرا واضحا بسوائل معينة موجودة فى الجسم ولكنها ليست سوائل جالينوس وأخلاطه ، بل هى إفرازات الغدد ذات الإفراز الداخلى [٢] كالدرقية وفوق الكلوية والنخامية وغيرها ، مما يصب افرازاته فى الدم . ولكثرة الإفراز وقلته أثر واضح فى الشخصية .

وقد تردد صدى كل من الاتجاهين فى أثناء النهضة الفكرية الإسلامية . وكان من أثر ذلك أننا نجد فى كتابات فلاسفة العرب لفظى النفس والعقل . ولم يكن اللفظان مترادفين وإنما كان كل منهما يشير إلى اتجاه خاص فى تناول الموضوع .

فالنفس كانت أكثر ما تُذكر عند ما يقصد إلى إبراز ناحية الانفعال أو الرغبة أو الشهوة ، هذا إلى تضمين المعنى أحيانا لما نفهمه من الروح ، وأما العقل فيُذكر عند ما يقصد الكاتب إلى المعرفة أو الذاكرة أو التفكير إلى غير ذلك من نواحى "الفكر" ، والواقع أن ألفاظ الروح والنفس والعقل قد أدت معانى مختلفة فى أوقات مختلفة .

ولكنها كثيرا ما تداخلت تداخلا كبيرا . فالروح كثيرا ما قَصَد بها الكاتبون مايتعلق بالقيم الخلقية ، بينما النفس كثيرا ما خُصصت للمعانى المتعلقة بالشهوة أو الناحية "الحيوانية" من الإنسان . أما "العقل" فقُصد به غالبا الناحية المفكرة المدبرة من الإنسان .

---

(١) Temperament

(٢) Endocrine glands

وعلم النفس الحديث لاينظر إلى هذه النواحى كوحدات مستقلة منفصلة ، بل يجمع بينها جميعا باعتبارها مظاهر لكلٍّ واحد نسميه أحيانا بالنفس وأحيانا بالعقل ، ولانفرق عادة بين التسميتين ، فهما الآن فى كتابات المحدثين باللغة العربية لفظان مترادفان لا مختلفان ، وسنجد أننا نستعمل اللفظين فى هذا الكتاب بمعنى واحد .

قلنا إنه كان هناك طريقان متوازيان للبحث فيما نسميه الآن علم النفس ، أما الطريق الفلسفى الذى كان ينصبُّ فى أغلبه على البحث فى المعرفة فقد لقى من عناية الفلاسفة ما جعله يتقدم ويثمر ويصبح هو الغالب ، بينما ظل الطريق الآخر مدة طويلة واقفا عند الحد الذى أوصله إليه جالينوس .

وبقى الحال على ذلك إلى أن أتى "كانت (١)" الفيلسوف المعروف فوصف العقل وصفا ضم جوانبه بعضها إلى بعض ، فقد قسم جوانب العقل إلى العلم ، والوجدان ، والإرادة ، وهى الجوانب التى اشتهرت بعد ذلك باسم المعرفة ، والوجدان ، والنزوع ، وبذلك أدخل فى حساب الفلاسفة هذين الجانبين الجديدين من جوانب النفس وهما الوجدان والنزوع ولم تعد المعرفة وحدها تشغل كل ميدان تفكيرهم . وتمهدت الطريق للاهتمام بالانفعال من جانب علماء النفس وبالرغم من ذلك فقد ظلت سيكولوجية المعرفة هى الغالبة بحكم التقليد ، وظل علم النفس يهتم أكثر ما يهتم بدراسة الناحية الفكرية الإنسان ، وظلت نظريات علم النفس ترجع أساس سلوك الإنسان إلى المعرفة والتفكير . وخير مثال لذلك نجده فى سيكولوجية "هربارت" منشئ علم النفس الحديث ، فقد نسب كلا من الرغبة والإرادة إلى فاعلية "الأفكار" فالفكرة المتغلبة تتحول إلى رغبة فإذا سمحت الظروف تحولت إلى إرادة . وعنده أن الألم ناشئ من التضارب بين الأفكار ، والسرور ناشئ من فضل القوى التى تدخل بها الأفكار إلى شعورنا . كما أن الخُلُق نتيجة لمجموعة الأفكار السائدة التى تصل إلى نوع من التفوق الدائم فى الشعور ، فتسهل للشعور أن يصطنع الأفكار المماثلة لها وتقاوم دخول الأفكار المضادة (٢) .

---

(١) Immanuel Kant 1781 : Chritique of pure Reason.

(٢) أنظر Flugel : Hundred Years of Psych. p 20

وعلى ذلك يكون قد أرجع الحياة النفسية كلها إلى نوع أو آخر من أنواع التفاعل بين الأفكار . فهى أساس الوجدان ، أساس اللذة والألم ، وأساس الخُلُق والشخصية .

وفى جميع هذه الأدوار التى مر بها علم النفس لانكاد نجد ذكرا للغرائز أو الدوافع أو غيرها من المصطلحات التى دخلت بعد ذلك وأصبحت من المفهومات الأساسية فيه .

فالغريزة[1] مثلا كانت فى نظر الباحثين وقفا على الحيوان ، توجهه إلى أداء ما يحتاجه فى حياته من الأعمال ، وتسيره فى الطريق الذى يحفظ حياته ويحفظ نوعه . أما الإنسان فقد وُهب " العقل " الذى يهديه ويرشده . فكأنما هناك تناقض أساسى بين فكرة العقل وفكرة الغريزة ، فالأول منطق مبصر ، والثانية عمياء مندفعة ، الأول يُكتسب ويُهذب ، والثانية تورث ولا تكتسب .

فبالرغم مما فعله " كانت " إذاً من مزج الفكر بالوجدان والنزوع واعتبارها جميعا من مظاهر العقل ، بقيت هناك مشكلة أخرى تتطلب الحل . وهى إيضاح العلاقة التى تربط بين العقل فى الإنسان وبين الغريزة فى الحيوان ، وقد ساعد على بروزها أن ظهرت فى النصف الأخير من القرن الماضى نظرية " دارون "[2] التى اعتبرت الإنسان حلقة فى سلسلة طويلة هى سلسلة الأحياء على اختلاف أنواعها ، وقد قضت هذه النظرية على ما كان يُظن من انفصال عالمى الإنسان والحيوان انفصالا تاما ، وأظهرت أن الإنسان من الوجهة التشريحية والوظيفية ماهو إلا استمرار لمجموعة من التراكيب والوظائف التى بدأت فى أبسط الكائنات الحية ، وظلت تتطور من درجة إلى درجة ، وتزداد تركيبا وتعقدا ، حتى وصلت إلى الصورة التى نعرفها فى الإنسان . وبذلك أصبح الإنسان من الناحية الجسمية قمة من قمم التطور الذى بدأ فى المراتب الدنيا من الحياة ، فهل يُعقل أن يكون من الوجهة العقلية نسيجَ وحده فى الكائنات الحية ؟ لم يكن من اليسير أن تصمد هذه النظرة الانفصالية أمام سيل التطورية الجارف ، فما لبث علم النفس أن تأثر بالنظرة الجديدة وبذلك وجدت " الغريزة " مكانها إلى جانب " العقل " فى المباحث النفسية المتعلقة بالإنسان فبرزت بصفة خاصة فى كتابات لويد مورجان[3] وجيمس[4]

---

(١) Instinct

(٢) Charles Darwin

(٣) Lloyd Morgan

(٤) William James

ومكدوجل[١] وغيرهم . ونرى الغريزة فى كتابات مكدوجل تبرز حتى تصبح هى الأساس الأول الذى يشتق منه سلوك الإنسان على اختلاف أنواع هذا السلوك ومراتبه وهذه النظرة تمثل نقطة تحوّل فى علم النفس تستحق أن نقف عندها بعض الشىء .

فقد أصبح من الضرورى أن يبحث علم النفس عن الصلة "العقلية" بين الإنسان والحيوان ، حتى يظهر على الأساس التطورى المشترك بينهما . لأن نظرية التطور حتّمت اعتبار الإنسان مجرد حلقة جديدة فى السلسلة الحيوانية وقد ساهم دارون نفسه فى وضع هذا الأساس المشترك بما ذكره فى كتابه عن "التعبيرات الانفعالية عند الحيوان والانسان[٢]"، وقد فصّل فيه فعل العضلات المتقابلة عند كل منهما فى التعبيرات الانفعالية المختلفة .

وقد أدّت هذه النظرة إلى البحث عن "غرائز" الانسان ، وعما هو "فطرىّ" فيه وبدأ علم النفس يتجه هذا الاتجاه . ولم يكن من السهل أن يفطن علم النفس الى هذه الحقيقة قبل ظهور نظرية التطور . وكان من نتائج هذا الاتجاه أن ظهر "علم النفس الحيوانى" كفرع من علم النفس له قيمته فى توجيه علم النفس "الانسانى" .

وقد بدأ علم النفس فى الوقت نفسه يتجه اتجاها اجتماعيا وبدأ علماء الاجتماع وغيرهم يبحثون عن تفسير نفسى للظواهر الاجتماعية والإنسانية المختلفة . وكان مكدوجل فى مقدمة أولئك الذين حاولوا أن يوجهوا علم النفس توجيها اجتماعيا . فقد عنى بأن يبرز الناحية الاجتماعية فى الغرائز الإنسانية وأن يتتبع النزعات الاجتماعية المختلفة إلى أصولها الفطرية .

وفى الوقت الذى كان فيه مكدوجل يمثل خلاصة الاتجاه الأكاديمى فى علم النفس فى أوائل القرن الحالى بدأ اتجاه مشابه له مشابهة كبيرة ولكنه يرجع فى أصله إلى البحث الطبى وهو اتجاه "فرويد[٣]" فى فينا .

ومن الغريب أن أوجه التشابه بين الاثنين كانت كبيرة بالرغم من التفاوت الهائل بين النظريتين التى انتهى إليها كل منهما .

---

(١) Mc Dougall

(٢) Dratwin : Expression of the Emotions in Man and Animals, 1872

(٣) Segmund Freud

وبما أننا سنتفرغ فى هـذا الكتاب لشرح نظريات فرويد فقد آثرنا أن نضع أمام القارئ فى هـذه المقدمة شرحا مختصرا لسيكولوجيـة مكدوجل ، وأساس السلوك الإنسانى عند مكدوجل كما قلنا هو الغريزة ، وللغريزة فى نظره معنى خاص ، فهى استعداد متعدد النواحى إذ أن لها جوانب ثلاثة مشتقة من مظاهر النفس التى وصفها "كانت" وهى الإدراك والوجدان والنزوع ، فالفأر مثلا إذا فوجئ برؤية القط فإنه يدركه إدراكا خاصا وينتبه له ، ويشعر بانفعال الخوف ، الذى يدفعه إلى النزوع نحو الهرب التماسا للنجاة ، فكأن الموقف الغريزى شمل الأنواع الثلاثة الإدراك والوجدان والنزوع ، ويحدث مثل ذلك بالنسبة للإنسان عندما يمر بموقف تثار فيه إحدى غرائزه .

وقـد قسم مكدوجل غرائز الإنسان إلى نحو أربع عشرة غريزة[1] مختلفـة نسب إليها سلوكه على اختلاف أنواعه . وجعل لكل غريزة مثيرا خاصا ، ويُعتبر إدراك هذا المثير بدءا لإثارة الفعل الغريزى ، كما أن لكل منها انفعالا خاصا بها وسلوكا خاصا تدفع اليه .

ومن الأسس التى تقوم عليها سيكولوجيـة مكدوجل أن السلوك يجب النظر اليه دائما فى ضوء الدافع الذى يدفع إليه ، والغاية التى يرمى إليها . فكل سلوك ينتج عن دافع ويرمى إلى غاية .

والدافع نوع من "الطاقة" أو "النشاط" الداخلى يحفز الإنسان إلى السلوك لبلوغ "غاية" معينة وبين "الدافع" "والغاية" يتنوع السلوك تنوعا واسع المدى .

وهذا التوكيد لغائية السلوك جعل المذهب السيكولوجى الذى يمثله مكدوجل يعرف بمذهب "الغائية[2]"

للإنسان إذن غرائز فطرية مثله فى ذلك مثل الحيوان ، غير أن الغرائز فى الحيوان متشابهة ، جامدة ، موحدة الصورة . وهـذا هو الذى جعل ملاحظتهـا سهلة من مبدأ الأمر ، أما الإنسان فإن المشاهد لسلوكه يجد تنوعا كبيرا فى السلوك واختلافا بين الأفراد ، فكيف يتفق ذلك مع وجود غرائز مشتركة بين الناس ؟

---

(١) التماس الطعام ، الجنسية ، التقزز ، الخوف ، الاستطلاع ، الوالدية ، التجمع ، السيطرة ، الخضوع ، الغضب ، التملك ، البناء ، الاضطجاع ، الهجرة ، وغرائز أخرى أقل أهمية .

(٢) Hormic Psychology

يعلل مكدوجل ذلك بأن الغرائز عند الإنسان قابلة للتعديل فى ضوء الخبرة التى يمر بها الفرد ، وفى ضوء " الغاية " التى ترمى إليها غرائزه . فغريزه الخوف مثلا يثيرها عند الطفل الصغير مثيرات معيَّنة كصوت عال مفاجئ مثلا ، وانفعالها الخوف ، وهو معروف لدينا . والسلوك الذى ترمى اليه هو الهرب من مثير الخوف . ولكن الغريزة تتعدّل فى حياتنا فنحن مع الوقت نتخلص من كثير من المثيرات التى تخيف الطفل ، وفى الوقت نفسه نتعلم أن نخاف أشياء جديدة لا تخطر له على بال ، فنخاف العار أو الفضيحة أو السقوط الأدبى إلى غير ذلك ، ثم إننا لا نهرب إذ نخاف هذه الأشياء بل نتبع طرقا أخرى للتخلص مما يخيفنا ، ونحن نغضب فى الطفولة إذا حيل بيننا وبين غاياتنا ، فالمثير الذى يثير الغريزة هو الحيلولة دون بلوغ الغاية ، والانفعال هو الغضب ، أما السلوك الناتج فهو الرغبة فى تدمير العقبة التى وقفت فى طريق الغريزة ، ولكننا إذ نتقدّم فى العمر نتخلص من كثير من مثيرات الغضب ونُحِلّ غيرها محلها فنغضب للكرامة ونغضب للاعتداء على الضعفاء ونغضب للوطن أو للدين أو لغير ذلك من " المعانى " التى لا تخطر للطفل على بال ، ثم اننا نتبع طرقا تختلف عن التدمير فنكتب ، ونرفع القضايا أمام المحاكم ، أو قد نؤلف قصيدة فى هجاء المغضوب عليه . ولكننا فى كلتا الحالتين نخاف ونغضب ، فإذا اعتبرنا المظاهر الثلاثة للغريزة فإن قابلية التعديل تنصب على اثنين منهما هما المظهر الإدراكى والمظهر السلوكى ولكنها لا تتناول المظهر الوجدانى وهو الانفعال .

وهذه القابلية للتعديل مهمة جدا لأنها هى التى تسمح برفع مستوى السلوك الإنسانى بأجمعه عن طريق الإضافة والإحلال والحذف ، وهى التى تسمح بهذا التنويع الكبير فى سلوك مختلف الأفراد وهو الذى يكاد يغطّى على الصورة الأصلية للغريزة ويوهم المشاهد السطحى أن الإنسان يكتسب سلوكه بالتلقين والعادة لا بالفطرة والسليقة . وهذا التعديل الذى يدخل على الغرائز يتأثر بما يمر به الفرد فى حياته من خبرة أو تعليم يرفعان السلوك الغريزى من مستواه الفطرى إلى مستوى أرقى .

فكأن الغريزة بصورتها الفطرية نواة نستطيع عن طريقها أن نرقى بالفرد ونُتيح له أن يسمو الى مستوى أعلا ، والواقع أن الرقى الذى يبلغه المجتمع إنما يأتى عن طريق تعديل غرائز أفراده . وكل فرد يتأثر بالمجتمع بدوره ، فتتعدّل

غرائزه فى الاتجاهات التى يسمح بها المجتمع ولنأخذ مثالا غريزة الخوف . فنجد فى الشكل الآتى ما بين الاتجاهات المحتملة لتعديلها .

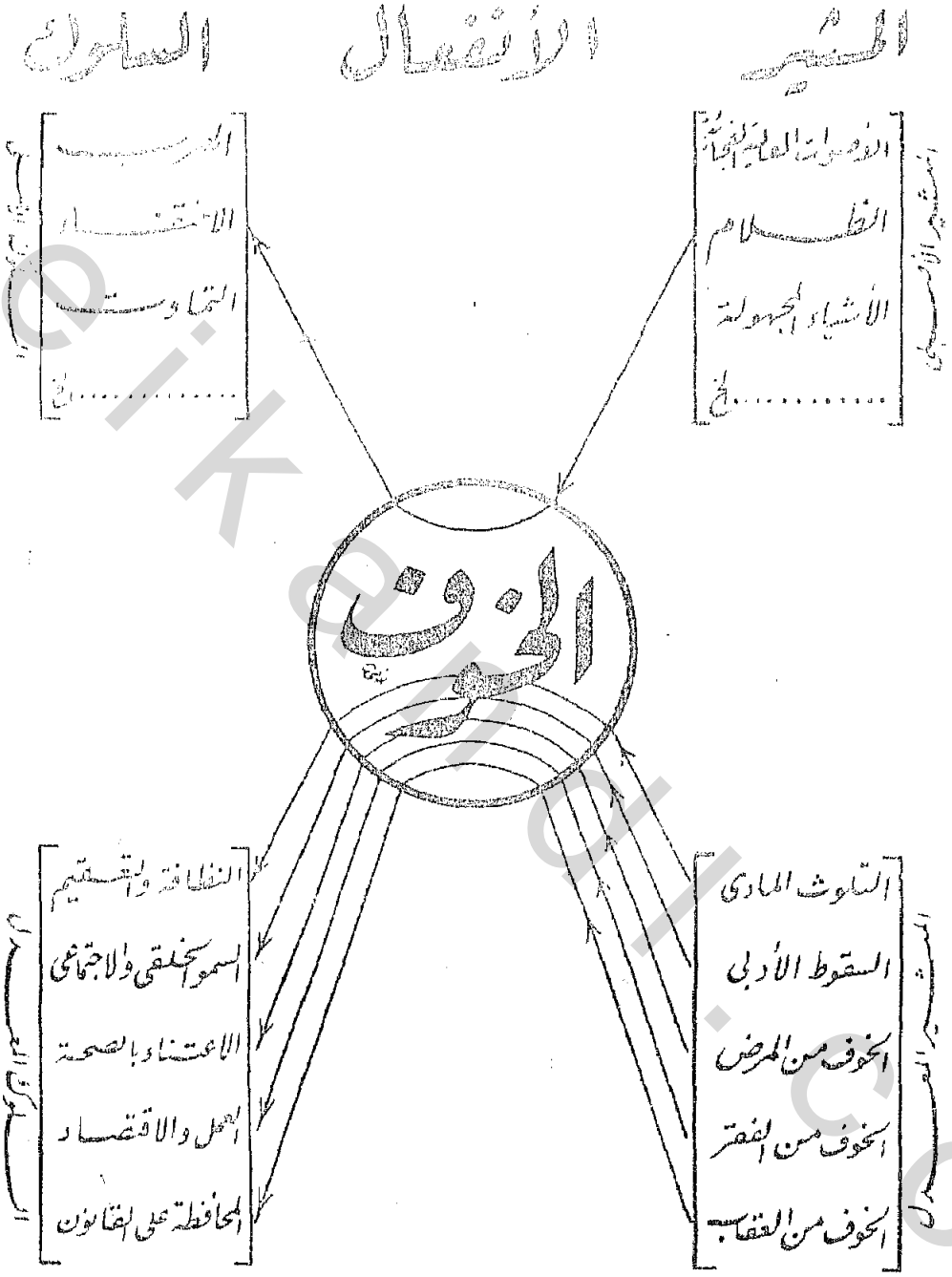




وهكذا بالنسبة لباقى الغرائز، ومجرد التعديل لايستلزم أن نسمو بالغريزة بل إن التعديل هو مجرد ربط الانفعال الغريزى بالمثيرات الجديدة أيا كانت، وطرائق السلوك الجديدة أيا كانت ، وقد اختُصت أنواع التعديل التى تسمو بالفرد خلقيا واجتماعيا باسم الاعلاء [1]

---

(1) Sublimation

obeikandl.com

لم تقف سيكولوجية مكدوجل عند هذا الحد بل إنها أكدت نقطة أخرى هامة هى حدوث تنظيم يتناول الغرائز فى صورتها الفطرية ويحيلها الى صورة جديدة . وذلك أن الغرائز فى صورتها الأولية قد تتضارب إذ تنشأ فى حياة الفرد مواقف تثير أكثر من غريزة فى وقت واحد ، كأن يجد الفرد نفسه وهو جائع مدفوعا بغريزة التماس الطعام الى التماسه من أى سبيل كالسرقة مثلا ، بينما تدفعه غريزة الخوف الى العدول عن ذلك .

ويتجاذبه الدافعان ولا يجد سبيلا الى ترجيح واحد منهما . ويغلب أن يتناوب الدافعان الغلبة عليه من لحظة لأخرى . وتتكرر أمثال هذه المواقف فى حياة الفرد ولذلك فإن الحياة النفسية التى تعتمد على الغرائز وحدها تكون حياة مضطربة ليس فيها وحدة ولا استمرار ، وانما يتراوح فيها الشخص بين النقائض تراوحا دائما[1] .

ولكنا نشاهد فى سلوك الناس عادة نوعا من الاستمرار والوحدة والاستقرار يجعل من الممكن أن نتنبأ بالكيفية التى يتصرف بها شخص معين فى موقف معين ، فأنت اذ تسمع عن صديق أنه خان أمانة وكلت اليه ، تقول : يستحيل أن يفعل صديقى مثل ذلك ! والواقع أنك إنما تستوحى ما تعرفه من سلوكه الماضى لتحكم على سلوكه فى هذه الواقعة المعينة ، أى أنك تفرض نوعا من الاستمرار والوحدة فى السلوك .

من أين يأتى هذا الاستمرار وهذه الوحدة ؟ الواقع أنها تأتى من تنظيم جديد يدخل على الغرائز ويؤدى الى نشوء دوافع جديدة للسلوك بالاشتقاق منها اطلق عليها اصطلاحا اسم العواطف[2]

ولنأخذ مثالا عاطفة الصداقة مثلا ، فهى تنشأ من مقابلتى لشخص معين عدة مرات متتالية ، ثم من احتكاكى بهذا الشخص فى أثناء هذه المقابلات احتكاكا يشبع فىّ رغبات معينة . فلا يلبث أن يصبح موضعا لاهتمامى ، ثم سرعان ما تتكون نحوه عاطفة نسميها عاطفة الصداقة ، فما علاقة هذه العاطفة بالغرائز ؟ الواقع

---

(١) قارن هذا بفكرة الصراع والكبت عند فرويد

(٢) Sentiments

أن العاطفة لا تتكون نحو هـذا الشخص إلا إذا تكرر إرتباطه بمواقف تستثار فيها انفعالاتى الغريزية ويكون له نصيب فى اشباع الغرائز . فهو مرة يرضى عندى غريزة السيطرة ، وأخرى يرضى غريزة التملك ، وثالثة يرضى غريزة التجمع ، وهكذا . . ومعنى هـذا أنه قد ارتبط بعدد كبير من الانفعالات ومتى تكونت نحوه عاطفة الصداقة أصبح له فى حياتى النفسية أثرا إيجابيا ، فأنا أغضب لما يغضبه وأحزن لما يُصيبه وأفرح لما يناله وأضحى فى سبيل مرضاته . . . وهكذا تصبح عاطفتى نحوه عاملا يتدخل فى سلوكى ويرجح ألوانا من هذا السلوك على غيرها . وبعبارة أخرى تصبح هذه العاطفة مصدرا لانفعالات جديدة لها أثر فى توجيه سلوكى .

وبهذه الكيفية تنشأ عاطفة الابن نحو أبيه وأمه ، ويصبح لعاطفته نحوهما من الأثر فى توجيه سلوكه ما نلمسه جميعا . فالطفل يُرضى الأم حتى ولو كان ذلك ضد نزعاته الغريزية أحيانا ، ويعمل على كسب عطف الوالد حتى ولو كان فى ذلك تضحية برغبة ملحّة . وتتكون عواطف الوالدين نحو أولادهم بنفس الكيفية .

ولكن هناك نوعا آخر من العواطف ، فالطفل إذ يقول الصدق إرضاء لأبيه انما يفعل ذلك بسبب عاطفته نحو الأب . ولو أراد له الأب أن يكذب لفعل ما دامت العاطفة ترمى إلى مجرد ارضاء الأب .

ولكن قد يأتى اليوم الذى يقول فيه الصدق حتى ولو كان ذلك ضـد أبيه أو ضدّ نفسه . وما ذلك إلا لأنه قد تكونت عنده عاطفة نحو الصدق نفسه ، بنفس الكيفية التى تكونت بها عاطفته نحو أبيه فيما مضى . ومن أهم التطورات فى حياة الفرد الخُلقية تكوين العواطف نحو الصفات والأفكار والمعنويات ، ويغلب أن يأتى ذلك عن طريق تأثير الأبوين والمجتمع المحيط بالطفل فى توجيهه ، سواء التأثير المباشر بالاملاء والنصح ، أو غير المباشر بالقدوة والمثال .

وهنا نرى بادرة " الخُلق " عند الشخص . لأن التنظيم ارتفع عن المستوى الغريزى إلى المستوى العاطفى الحسى ، ثم إلى المستوى العاطفى المعنوى .

ولا يلبث أن يدخل على العواطف نفسها تنظيم يشبـه التنظيم الذى دخل على الغرائز .

فعواطف الشخص نحو الصدق والفضل والسمو والقوة والبأس والوطنية الخ . . . لايكون لها نفس الأثر فى حياته إذا لم تنظم تحت قيادة واحدة ، وهذه القيادة تأتى من " عاطفة اعتبار الذات[1] " كما يسميها مكدوجل وهى العاطفة العليا فى حياة الإنسان . ويمكن وصفها بأنها تنظيم جديد للعواطف حول الذات[2] باعتبارها مالكة للصفات المحبوبة من الشخص . فأنا قد أعجب بملبس سيدة متأنقة وقد أكون نحو هذه السيدة عاطفة ، غير أنى لا أنظر اليها كما لو كنت أتمنى أن اتصف بصفاتها ، ولكننى إذ أعجب برجل قوى أو فاضل ، كثيرا ما يتضمن إعجابى رغبة فى الاتصاف بصفاته .

وهذا هو موقف الطفل من تكوين عواطفه ، فهو عندما يكوّن عواطفه نحو شخص ما ، يبدأ فى الوقت نفسه بأن يكون عواطف نحو صفات هذا الشخص ، ولا يلبث أن يلتقى من صفات مخالطيه ومعارفه وأبطال قراءته وغيرهم مجموعة من الصفات يكوّن من مجموعها نوعا من المثل الأعلى الذى يحب لذاته أن تتصف به وهذا هو طريق نشوء عاطفة اعتبار الذات .

ومتى نشأت هذه العاطفة أصبح الشخص يحكم على سلوكه بقدر مايضيف هذا السلوك إلى اعتباره لذاته أو ينقص منه . فما يضيف فهو سلوك مرغوب فيه ، وما ينقص فهو سلوك مرغوب عنه . ويصبح هذا هو المقياس الذى يقيس به تصرفاته ، فهو لايجرى وراء مجرد إرضاء غرائزه ، أو عواطفه نحو الأشخاص ، أو حتى نحو الصفات ، بل إن الحكم الأخير فى أى تصرف من تصرفاته هو مايضيف أو ينقص هذا التصرف من اعتباره لذاته ، فيقرّب بها أو يبعدها عن مثلها الأعلى . انظر إلى تصرف الجندى الذى يقبض الأعداء عليه وعلى أولاده ويعذبونه ويعذبون أولاده لكى يبوح بأسرار وطنه . أنه يقاوم نزعته الإبقاء على نفسه ويقاوم عاطفته نحو أولاده ويقاوم كل ذلك ، لأن اعتباره لذاته لايسمح له أن يرتكب ما يُطلب اليه ولو فعل عاش معذبا لأن " الضمير " وهو مرتبط بهذه العاطفة يبكته لأنه لم يرتفع بالفعل إلى مستوى الفكرة .

---

(١) Self Regarding Sentiment (٢) Self

وكانت سيكولوجيه مكدوجل أول محاولة جدية لتفسير السلوك الإنسانى على اختلاف أنواعه على أساس واحد . فسيكولوجيه الفرد وسيكولوجية الجماعة وسيكولوجية الشواذ " العصابيين والمجانين[١] " كانت تسير كل منها قبل ذلك فى اتجاه مستقل . وقد حاول مكدوجل أن يجعل نظريته ذات أساس واحد يمكن تطبيقه على جميع هذه الحالات . وقد نجح لحد كبير فى تفسير نفسية الجماعات على نفس الأسس التى وضعها لنفسية الأفراد[٢] ولكنه لم يبلغ نفس النجاح إذ حاول أن يفسر نفسية الشواذ ففى كتابه " علم نفس الشواذ " لم يستخدم من الأسس التى أوردها فى نظرياته الأساسية إلا عددا محدودا ، وحتى هذه لم يستطع استخدامها بحيث تفى بتفسير أنواع السلوك الشاذ التى تعرَّض لها وفاءً تاما ، وبذلك خرج كتابه وهو كبير الشبه بالكتب التى وضعت فى نفسية الشواذ بدون أن تشتق كثيرا من نظريات علم النفس العادى[٣] وعلى ذلك بقى عندنا بالرغم من محاولات مكدوجل ، تياران مستقلان فى علم النفس و إن كانت الصلة بينهما قد أصبحت أوثق كثيرا من ذى قبل .

هذه خلاصة وافية لسيكولوجيه مكدوجل ، وقد أوردناها بهذا التطويل لسببين : الأول — أنها تحمل فى ثناياها كثيرا من الأسس التى ظهرت فى سيكولوجيه فرويد[٤] . والثانى — أنها تمثل نفس الاتجاه لإبراز أهمية الغريزة والانفعال ، و إن كان مفهوم هذين اللفظين والعلاقة بينهما تختلف اختلافا كبيرا بين المدرستين .

غير أن الفرق بين المدرستين يظهر فى نقط أساسية جدا ، ولعل أهم هذه النقط — وقد سلم بها مكدوجل فى بعض كتاباته الأخيرة تسليما مطلقا — كشف المنطقة المجهولة من العقل المسماه باللاشعور .

فتكوين العواطف والخلق عند مكدوجل إنما هو نتيجة الاتصال الشخصى بالبيئة فى مستوى شعورى بل لعل مكدوجل جعله منطقيا أيضا .

---

(١) Abnormals : Neurotics & Psychotics واستخدام عصابيين هنا مقتبسة من الدكتور يوسف مراد (شفاء النفس) ١٩٤٥ وقد أخذنا عنه بعض المصطلحات الأخرى .

(٢) راجع كتابه The Group Mind (٣) راجع كتابه An Outline of Abnormal Psych-

(٤) يعتبر مكدوجل وفرويد معاصرين من الوجهة التاريخية ، بل إن فرويد سابق لمكدوجل إذ ظهرت أولى كتاباته سنة ١٨٩٥ وظل ينشر نظرياته تباعا حتى قبيل وفاته فى سنة ١٩٤٠ أما مكدوجل فقد ظهر كتابه الأول سنة ١٩٠٨ يحوى نظريته كاملة تقريبا .

obeikandl.com

وما يحدث من التنافس والصراع بين الرغبات المتناقضة شعورى أيضا ، وعاطفة اعتبار الذات وهى جُماع الخُلق عند مكدوجل تكاد تكون خلاصة منطقية لما يمر فيه الشخص من تجارب ، ثم إن أثرها فى حياة الشخص أثر منطق . فإذا تصورنا شخصا مر فى الأدوار التى رتبها مكدوجل فنُظمت غرائزه إلى عواطف ، ونُظمت عواطفه وتكونت عاطفة اعتباره لذاته ، فإنه يصعب علينا أن نتصور كيف يرتكب هذا الشخص خطأً ، وكيف يمكن أن يحيد عن الطريق الذى توحى به هذه العاطفه المسيطرة . حقيقة أن مكدوجل قد احتفظ للغرائز بقوتها الدافعة و بالقدرة على التنافس مع القيم العليا . ولكن لم يؤكّد هذه النقطة تأكيدا كافيا . وذلك طبيعى لأن تنافس غريزة مفردة مع عاطفة كعاطفة اعتبار الذات تنافس بين متفاوتين تفاوتا كبيرا ، فإذا أتينا إلى مدرسة التحليل النفسى نجد أنها قد نجحت فى مقابلة أمثال هذه النقطة بالذات ، إذ جعلت التصارع بين "نزعة" لا شعورية و بين "ذات[1]" شعورية فأعطى للنزعة سلاح التخفى تحارب به فى سبيل غاياتها بغير أن تكشف عن نفسها .

وعند مكدوجل أن التنافس بين غريزتين ينتهى إلى اندماج الانفعالين المشتقين منهما فى انفعال واحد ، فكأن كلا من الدافعين الغريزيين قد وصل إلى درجة معينة من الاشباع ، و بذلك تنتهى قصة هذا "الصراع" بالذات إلى نوع من الاتفاق ، أما عند فرويد فان النزعات إذ تتضارب أو تتصارع انما تتغلب إحداها تغلبا مطلقا بينما تنهزم الأخرى هزيمة مطلقة ، والنزعة المهزومة هى التى تتحدر إلى "اللاشعور[2]" وتبقى تحت ضغط مستمر وفى محاولة دائمة لتصل الى الاشباع الذى حُرمته . فالصراع عنده ذو أثر دائم والمعركة لا تنتهى ، واذن فقصة كل صراع نفسى فى حياة الانسان قصة لها ما بعدها .

ويمكن أن ننظر الى سيكولوجية مكدوجل باعتبار أنها سيكولوجية الجانب الشعورى من النفس ، وهى فى هذا تتفق فى أكثر من نقطة مع سيكولوجية

---

(١) النزعه Impulse يمكن اعتبارها مقابلة للغريزة ؛ والذات Ego نتيجة تنظيم للنزعات فهى من بعض الوجوه تقابل العاطفة المذكورة

(٢) Unconscious راجع الباب الرابع

"الذات"[١] عند فرويد . وكان من الطبيعي أن تتركز سيكولوجية فرويد في مبدأ الأمر على القوى اللاشعورية ولذلك كانت كتاباته عن "الذات" متأخرة نوعا[٢] وفي معالجة فرويد للذات كان اهتمامه موجها للذات باعتبار علاقاتها بالقوى الأخرى المتصلة بها . ولعل التحليل النفسي لو عنى "بالذات" لنفسها وحاول أن يصف فكرة "الذات" عن نفسها ووصفها لما يحدث في النفس ، والصدى الشعوري للتطورات المختلفة التي تحدث فيها لأخرج لنا فكرة لا تختلف عن فكرة مكدوجل كثيرا .

يمكن إذن أن نعتبر أن فرويد نظر إلى العقل من زاوية اللاشعور واتصل بالذات الشعورية بالقدر الذي يهمه من هذه الزاوية . أما مكدوجل فنظر إلى العقل من ناحية الذات الشعورية فلم يكن له اتصال يذكر باللاشعور ولو أن المتمعن في كتاباته يجد أنه كثيرا ما كان يقترب من فكرة اللاشعور اقترابا كبيرا ثم لا يلبث أن يبتعد عنها مرة أخرى ، ولعل خير مثال على ذلك أن مكدوجل في كتابه "علم النفس الاجتماعي"[٣] وصف مثالا للصراع بين نزعتين "ص ١٥٣" ولكنه سرعان ما تخلص من النتيجة التي كان يمكن أن تترتب على الافاضة في بحثه بأن ذكر أن النزعتين في النهاية تندمجان اندماجا ناقصا وتكونان شيئا لا نجد له اسما نسميه به "ص ١٥٤" ، وقد اعتبر مكدوجل الانفعال في هذه الحال انفعالا مركبا[٤] وبما أن الانفعال المركب ناتج من تنافس غريزتين فمن الواضح أن أيا منهما لم تصل إلى التعبير الكامل بل إن هذا الاندماج أو "المزج" يقتضي أن ينال كلا من الغريزتين قدر من التعطيل . وربما كانت النتيجة التي وصل إليها مكدوجل هنا ضرورية في ضوء نظرية الانفعالات التي تنادي بها ، وهي التي تجعل لكل غريزة انفعالا قائما بذاته خاصا بها ، بينما جعل فرويد الانفعال رصيدا عاما عند الانسان ، يظهر في مختلف المواقف بصور مختلفة ، وقد اعتبر مكدوجل أن الانفعال هو مظهر أساسي من مظاهر الغريزة وهو موجود دائما في المواقف الخاصة بهذه الغريزة سواء وجدت الغريزة في هذا الموقف

---

(١) Ego أو كما تسمى "الأنا" وهي تشمل الجزء الشعوري من النفس ، أو النفس بالمعنى القديم

(٢) نشر كتاب The Ego & The Id في سنة ١٩٢٣ — راجع : Psycho-Analysis Today p. 143

(٣) طبعة عام ١٩٣١

(٤) complex

تسهيلا أم "تعطيلا"[١] فالانفعال عند مكدوجل خاص ولا مناص من حدوثه، ولكن فرويد ينظر إلى الانفعال على أنه عام، وهو ناشئ عن التعطيل، وفوق ذلك فهو لا يرتبط بالموقف الراهن فقط وإنما يشتق من مواقف سابقة فى حياة الفرد، وليس عند مكدوجل شبيه بهذا إلا فى غريزة المقاتلة حيث يعتبر انفعال الغضب ناشئا عن المقاومة التى تجدها أى غريزة أخرى تهيأت أسباب إثارتها[٢].

ولمكدوجل حظوة كبيرة عند المربين لأنه أعطى لهم نظاما لبناء الخُلق على اساس الغرائز والعواطف. وهذا النظام مفيد إذا نظرنا إليه باعتباره جزءا من تدريب الذات تدريبا كثيرا ما يجد صدى فى باقى جوانب النفس. وإن كنا لا نكتفى بذلك الآن إذ أن من الخطر إغفال القوى اللاشعوريه فى بناء الخُلق.

والواقع أن العلاقة بين المذهبين لا تزال فى حاجة إلى دراسة أكثر تفصيلا وإن مكدوجل ليشير إلى ذلك فى كتابه "علم النفس الاجتماعى والتحليل النفسى".

والواقع أن الكشف الذى بهر به فرويد أنظار العالم والذى لم تتردد الأغلبية العظمى من علماء النفس فى أن تعترف به، هو اللا شعور، وهذا الكشف وحده يجعل من فرويد كما قال مكدوجل "الرجل الذى أضاف الى معرفتنا بالطبيعة البشرية أكثر مما فعله أى انسان آخر منذ أرسطو[٣]" وربما كان من الضرورى لإكمال هذه المقارنة أن نذكر اهتمام فرويد بالنزعة الجنسية، والجنسية عند فرويد هى فى الواقع من التفاصيل الفنية، وهى بهذه الصفة لم تكن تستحق كل ما أثير حولها من الغبار، خصوصا من علماء النفس، الذين نعت بعضهم نظرية فرويد بنظرية تمجيد الجنسية، والأمر بعيد عن ذلك كل البعد؛ لأن الجنسية عند فرويد كما سنرى ما هى إلا مبدأ لتفسير السلوك الإنسانى على أساس واحد. ثم إن نظرية اللاشعور لا يكون لها داع قوى إذا لم تكن الدوافع التى تُكبتَ دوافع من النوع الذى يمحه الشعور ويتجاهله، وعلى ذلك فلا يمكن الأخذ بواحد منهما — اللاشعور والجنسية — دون الآخر.

---

(١) Inhibition

(٢) Mac Curdy : The Psychology of Emotions, 1925; chs. VIII & IX

(٣) Mc. Dgl. : Psycho Analysis & Social Psych 1936

وقد نجح فرويد فيما لم ينجح فيه مكدوجل فقد استطاع أن يصل الى تفسير شامل للسلوك الإنسانى على اختلاف أنواعه على عدد محدود من الأسس . وقد اعترف بذلك مكدوجل نفسه [١] .

وقد كانت نقطة البدء عند فرويد هى العلاج الطبى ، ولكن النظرية مالبثت أن غمرت الميادين الأخرى على اختلافها ، فدخلت ميدان علم النفس العام ثم علم نفس الأطفال ، والبدائيين ، وما لبثت أن اجتذبت أنظار علماء الاجتماع ، وعلماء الانثروبولوجيا ، بل والساسة ورجال الحرب ، فبدءوا يعلقون عليها آمالا كبارا ، ويقارنون ملاحظاتهم فى حقول تجاربهم المختلفة بنتائج النظرية ، ويهتمون بما يجدون مما يؤيدها أو يعارضها .

وفى فصول الكتاب التالية ستجد شرحا وافيا لنظريات فرويد .

---

(١) Mc. D. : Psychoanalysis & Social Psychology : ص ١٥ من